النسق المضمر في نقائض جرير و الفرزدق
دراسة نقدية ثقافية

د. ريما عبد الكريم رجوب
قسم اللغة العربية
جامعة حمص

ملخص البحث

يسعى هذا البحث إلى استنطاق النوايا الخلفية والمضمرات النسقية الكامنة في مدونة "نقائض جرير والفرزدق"، متجاوزاً المقاربات الجمالية والبلاغية التقليدية نحو أفق "النقد الثقافي". تكمن مشكلة الدراسة في تفسير التناقض المعرفي القائم بين السطح الجمالي للنقائض (الذي يوحي بالخصومة والتمايز الأسلوبي) والعمق النسقي المضمر (الذي يعيد إنتاج النسق القبلي المهيمن وتكريس الأيديولوجيا السياسية للدولة الأموية). باعتماد أدوات التحليل النسقي، يتتبع البحث كيفية تحول الهجاء والفخر من مجرد أداة فنية إلى آلية نسقية غير واعية تصوغ وعي الجمع وتوجه الصراع الاجتماعي. تبرز أهمية البحث في كشف عيوب الثقافة النسقية التي تغلغلت في الخطاب الأموي وظلت فاعلة في الوجدان العربي.

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، النسق المضمر، الخطاب الأموي، النقائض، جرير والفرزدق.

Abstract

This research aims to interrogate the hidden intentions and implicit systemic structures embedded within the corpus of the "Naqa'id of Jarir and al-Farazdaq," moving beyond traditional aesthetic and rhetorical approaches toward the horizon of "Cultural Criticism." The core problem of the study lies in deciphering the epistemic contradiction between the aesthetic surface of the Naqa'id (which suggests personal rivalry and stylistic divergence) and the implicit underlying pattern (which reproduces the dominant tribal system and reinforces the political ideology of the Umayyad state). Utilizing the tools of systemic cultural analysis, the study traces how satire and boasting evolved from mere artistic devices into an unconscious systemic mechanism that shapes collective consciousness.

Keywords: Cultural Criticism, Implicit Pattern, Umayyad Discourse, Naqa'id, Jarir & al-Farazdaq.

مقدمة:

تأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على ظاهرة "النقائض" بوصفها لعلّها الظاهرة الأبرز في العصر الأموي، وتحديداً نقائض جرير والفرزدق، التي مثلت ذروة المطارحات الشعرية. وعلى الرغم من وفرة الدراسات الفنية والتاريخية التي تناولتها، فإن المقاربة النسقية الثقافية تظل حاجة ملحة للكشف عن أبعادها المضمرة التي لم تبح بها البلاغة التقليدية. إن مشكلة هذا الخطاب تكمن في كونه خطاباً مزدوجاً؛ يتسم بظاهر جمالي يبدو فيه الشاعران في حالة صراع واختلاف، غير أنه يخفي باطناً نسقياً يكرس قيماً عصبية وثقافية مشتركة تعيد إنتاج الهيمنة وتغذي الوعي الجمعي بأنساق التفاخر والتهميش. ويهدف هذا البحث إلى تفكيك ثلاث بنى رئيسة تشكل المتنَين النظري والتطبيقي للدراسة، وهي: النسق القبلي وإعادة إنتاج العصبية، والنسق السياسي المتمثل في تمرير أيديولوجيا السلطة، والنسق الفردي المتعلق بتضخيم الذات الفردية على حساب المجموع. ومن خلال المزج المنهجي بين التحليل الثقافي الباطني والآليات الأسلوبية الظاهرية، يسعى البحث لتقديم قراءة رصينة تمكننا من فهم كيفية اشتغال الثقافة العربية الأموية داخل النص الشعري، ممهدة الطريق لوعي نقدي يربط الإبداع بمرجعياته المؤسسة له.

تمهيد

يُمثّل العصر الأموي مرحلة تحول حاسمة في تاريخ الثقافة العربية، إذ تداخلت البنى القبلية الموروثة مع آليات الدولة المركزية الناشئة، مما انعكس بوضوح على الخطاب الشعري. ولم يعد الشعر في هذا السياق مجرد تعبير عن عواطف الذات أو مهارة لغوية بلاغية، بل تحول إلى ساحة خلفية للصراعات الأيديولوجية والاجتماعية. ومن هنا، ينهض النقد الثقافي كأداة معرفية لتفكيك هذا الخطاب واستخراج مضمراته التي حركت الوعي الجمعي العربي. إن إعادة قراءة الموروث الشعري الأموي تستدعي تجاوز المناهج النصية المغلقة نحو فضاءات نقدية تستنطق المسكوت عنه في بنية النصوص.

مشكلة البحث :

تبلور مشكلة البحث في المعضلة الآتية: كيف استطاع خطاب النقائض عند جرير والفرزدق أن يمرر أنساقاً ثقافية مضمرة وصارمة (كالقبلية والتبعية السياسية) تحت غطاء من الجمالية اللغوية والبلاغية الفائقة؟ وبتعبير آخر، يواجه البحث إشكالية التناقض بين وعي الشاعر الفني (الظاهر المستهلك) واللاوعي الثقافي (الباطن المضمر) الذي يوجه القصيدة ويعيد إنتاج العصبية الجاهلية في قالب أموي جديد.

أهمية البحث :

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يطبق آليات النقد الثقافي الحديث على النقائض التي لعلّها من أهم المدونات الشعرية في التراث العربي. ويسهم البحث في الكشف عن "العيوب النسقية" للثقافة العربية كما تبدت في أوج ازدهار الخطاب الأموي، والوقوف على كيفية توظيف الشعر لخدمة أغراض سياسية واجتماعية غير معلنة. ويوفر البحث أداة منهجية تجمع بين جماليات اللفظ ومضمرات النسق.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى استخراج الأنماط والأنساق الثقافية الخفية في نقائض جرير والفرزدق وتصنيفها موضوعياً. ويسعى إلى بيان الكيفية التي تحول بها الشعر من وظيفة الترفيه الفني إلى وظيفة التوجيه الأيديولوجي والسياسي في العصر الأموي. ومن أهدافه أيضاً إثبات أن الخصومة بين الشاعرين كانت خصومة نسقية متكاملة تدعم البنية القبلية والسياسية السائدة ولا تخرقها.

حدود البحث:

* الحدود الموضوعية والمصدرية: دراسة الأنساق المضمرة في كتاب "نقائض جرير والفرزدق" بشرح أبي عبيدة معمر بن المثنى، مستهدفاً الأبيات التي تمثل صراع الأنساق.

فرضية البحث:

تفترض الدراسة أنّ نقائض جرير والفرزدق، على الرغم من ظاهرها الجمالي القائم على الخصومة الفنية والتباري الأسلوبي، تُخفي في عمقها أنساقاً ثقافية مضمرة (قبلية، وسياسية، وفردية) تعيد إنتاج الهيمنة والتراتبية الاجتماعية السائدة في العصر الأموي، وأنّ الشاعرين، على الرغم من تناحرهما الأسلوبي الظاهر، يلتقيان فعلياً في خدمة هذه الأنساق لا في خرقها.

صعوبات البحث:

واجه الباحث عدداً من الصعوبات، من أبرزها: ندرة الدراسات النقدية الثقافية المتخصصة التي تناولت نقائض جرير والفرزدق تحديداً بمنهج النقد الثقافي، إذ اقتصرت أغلب الدراسات السابقة على المقاربة الفنية والبلاغية؛ إضافة إلى صعوبة الفصل المنهجي بين ما هو جمالي وما هو نسقي في نص شعري واحد، لتداخل الأدوات الفنية بالمضمرات الثقافية تداخلاً وثيقاً.

أسئلة البحث:

تنطلق الدراسة من مجموعة من الأسئلة الرئيسة، أبرزها: كيف يمكن الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة خلف السطح الجمالي للنقائض؟ وهل كانت الخصومة الشعرية بين جرير والفرزدق خصومة حقيقية أم كانت آلية نسقية لخدمة أهداف مشتركة؟ وإلى أي مدى ما تزال هذه الأنساق (القبلية، والسياسية، والفردية) فاعلة في الخطاب الثقافي العربي المعاصر؟

الدراسات السابقة :

يمكن تصنيف الجهود النقدية التي قاربت هذا الموضوع إلى مسارين رئيسين:

1. الدراسات النصية والبلاغية التقليدية: مثل دراسة د. شوقي ضيف في كتابه *التطور والتجديد في الشعر الأموي*، ودراسات د. إحسان عباس. ركزت هذه الجهود على دراسة النقائض من منظور الفن الأسلوبي، وتطور الهجاء، والخصائص اللغوية، مرجعة الظاهرة إلى أسباب سياسية واجتماعية واضحة، لكنها ظلت قاصرة عن سبر الأنساق الثقافية المضمرة في لاوعي النص.

2. الدراسات الثقافية النسقية: وأبرزها المشروع النقدي لـ د. عبد الله الغذامي في كتابه *النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية* (2000). وعلى الرغم من أن الغذامي وضع الأسس النظرية لـ "النسق المضمر" وطبقها على بعض النماذج التراثية، إلا أنه لم يفرد دراسة تفصيلية تطبيقية شاملة تتناول "النقائض الأموية" بوصفها بنية نسقية مستقلة تقوم على ثنائية الهدم والبناء للقيم السياسية والقبلية.

* موقع البحث الحالي: يأتي هذا البحث ليرأب الصدع بين التحليل الفني والتحليل الثقافي، متخذاً من نقائض جرير والفرزدق مدونة مستقلة لإثبات أن جماليات السطح هي التي تحمي قبح النسق المضمر.

منهج البحث: يعتمد البحث بصفة رئيسة على المنهج النقدي الثقافي مستعيناً بالأدوات الإجرائية التي صاغها رواد هذا المنهج لتفكيك الأنساق المضمرة واستكشاف المسكوت عنه خلف الأقنعة البلاغية. ويستعين البحث بآليات التحليل الأسلوبي لتفكيك الظاهر النصي (المعجم والتركيب) بوصفها عتبة إجبارية للمرور نحو الباطن الثقافي؛ مما يضمن إيجاد قراءة نقدية متوازنة لا تهمل جمالية النص لصالح مضمونه الثقافي.

العرض و المناقشة:

المبحث الأول: النسق القبلي وإعادة إنتاج العصبية في نقائض جرير والفرزدق

الفكرة النظرية والعمق الثقافي للنسق القبلي

يقوم الخطاب الأموي في جوهره على مفارقة معرفية حادة؛ ففي الوقت الذي استقرت فيه الدولة الإسلامية المركزية وتبنت خطابه الإنساني الشامل الذي ينبذ التفاخر بالآباء والقبائل، ظل الشعر يعمل كخزان لامتسق، يعيد إنتاج "النسق القبلي" الجاهلي في لاوعي المبدع والمتلقي معاً. إن النقائض عند جرير والفرزدق لا تمثل مجرد مبارزة أسلوبية بين شاعرين عبقريين، بل هي تجلٍ بنيوي لنسق ثقافي مضمر، يتخذ من البلاغة والجمالية الشعرية غطاءً لتمرير "قبح النسق العرقي والقبلي".

الخطورة المعرفية هنا تكمن في أن السطح الجمالي الأخاذ للقصيدة (من بحور عروضية فخمة، وقوافٍ رنانة، وصور بيانية مبتكرة) يعمل بمثابة "مخدر أيديولوجي" يجعل المتلقي يتلذذ بالفن، بينما يتشرب في الآن ذاته قيم التهميش، والإقصاء، وتصنيف البشر وفق محددات الدم والنسب التي جاء الإسلام لتقويضها.

وفي هذا السياق، يرى النقاد الثقافيون أن الخطاب الشعري قد يتواطأ –دون وعي من صاحبه– مع البنى الاجتماعية المهيمنة ليحول العيب الثقافي إلى ميزة اجتماعية. ويؤكد هذا الطرح ما ذهب إليه الدكتور عبد الله الغذامي في مشروعه النقدي؛ إذ يرى أن الأنساق الثقافية المضمرة تمتلك قدرة هائلة على التخفي وراء الصيغ البلاغية والجمالية، مما يتيح لها البقاء والاستمرار في توجيه السلوك الجمعي، حتى وإن تبنت الجماعة فكراً ظاهرياً يناقض تلك الأنساق.

يقول الفرزدق في إحدى نقائضه الشهيرة مفاخراً بأيام قومه وجاعلاً من المجد إرثاً جينياً مغلقاً لا يناله سواهم:

إِنَّ الَّذي سَمَكَ السَماءَ بَنى لَنا بَيتاً دَعائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطوَلُ

بَيتاً بَناهُ لَنا المَليكُ وَما بَنى حَكَماً لِأَوَّلِنا بِهِ لا يُعجَلُ [1]

ينزع الفرزدق في هذين البيتين نحو إضفاء طابع "مقدس" على النسق القبلي الجاهلي. فاستخدام الفعل الراديكالي (بنى لنا المليك) ينقل الفخر من حيز الجهد البشري أو الأخلاقي إلى حيز

[1] - (نقائض جرير والفرزدق، شرح أبي عبيدة معمر بن المثنى، ص 142).

"الحتمية الإلهية" والاصطفاء العرقي. السطح البلاغي هنا مشحون بجماليات الاستعارة والاعتزاز بالذات، إلا أن النسق المضمر يكرس عيباً ثقافياً خطيراً، وهو نسق "الاستعلاء العرقي" وشرعنة الطبقية الاجتماعية عبر قناع ديني (المليك/ السماء). فالبيت هنا لا يمدح قيماً أخلاقية كالعدل أو الكرم، بل يمدح "البنية الهيكلية" للقبيلة بوصفها قدراً محتوماً يمنحها الحق في تهميش الآخر (جرير وقبيلته كليب).

يجيب جرير باختراق ذات الأدوات النسقية، معيداً صياغة التراتبية القبلية عبر آلية الهدم والإقصاء المقابل، فيقول:

خَزِيتَ بِيوتُكَ يا فَرَزدَقُ في العُلا وَعَفَت مَآثِرُ دارِكَ المُستَجهَلُ
أَتُفاخِرونُ بَني كُلَيبٍ بِالعُلا وَبِنا يُساقُ إِلى المَظالِمِ قَسطَلُ [1]

يمتثل جرير هنا لذات النسق المضمر الذي فرضه الفرزدق؛ فهو لا يحاول تفكيك البنية القبلية القائمة على التفاخر الأعمى، بل يدخل في لعبة "المرآة العاكسة". يتحول الخطاب عند جرير من الدفاع إلى الهدم الشامل لبيوت الفرزدق (خزيت بيوتك)، مستخدماً صيغ النفي والتحقير للمآثر الثقافية للآخر. المضمر النسقي هنا هو "استحالة التعايش خارج إطار الغلبة القبلية"؛ فالإنسان في هذا الخطاب لا يستمد قيمته من ذاته أو ورعه أو فكره، بل من قدرة قبيلته على سوق "القسطل" (الغبار/ الحرب) وإيقاع المظالم بالآخرين. إنها إعادة إنتاج صريحة لقانون الغاب الجاهلي مغلفاً برداء أسلوبي أموي بارع.

"إن النسق الثقافي يعمل عمله في خفاء، وهو نسق ينطوي على دلالات مضمرة لا تظهر على السطح التعبيري للنص، ولكنها تتحكم في توجيه الدلالة الكلية. وإن الخطاب الشعري العربي، وتحديداً في نماذج الفخر والهجاء كالنقائض، قد ظل مخلصاً لبنيته القبلية الأولى، إذ نجحت البلاغة في تمرير العيوب النسقية وجعلها مقبولة بل ومطلوبة جمالياً، مما أدى إلى تكريس العصبية وإعادة إنتاج الفكر الإقصائي في لاوعي الأمة." [2]

[1] - (نقائض جرير والفرزدق، شرح أبي عبيدة معمر بن المثنى، ص 148).
[2] -د. عبد الله الغذامي: النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية 2000م، دار النشر: المركز الثقافي العربي بلد النشر: بيروت، لبنان ط: 1 ص 74

إن نقائض جرير والفرزدق ليست صراعاً شخصياً بين شاعرين، بل هي صراع مركب بين أنساق ثقافية جمعية مستقرة في اللاوعي العربي.

إن جمالية اللفظ والبلاغة الظاهرة في العصر الأموي كانت الأداة الرئيسة لحماية واستمرار "قبح النسق القبلي" الجاهلي.

يميل المنهج النقدي الثقافي إلى إلغاء وعي الشاعر (جرير أو الفرزدق) واعتباره مجرد "ممرر أعمى" للنسق، وهو ما قد يجحف بحق العبقرية الفردية والوعي السياسي الذاتي لكل منهما.

قد يؤدي الإغراق في التحليل الثقافي إلى وسم التراث الشعري بأكمله بالرجعية والقبح النسقي، وإغفال الجوانب الإنسانية والأخلاقية السامية التي حملتها القصائد في ذات العصر.

تعد إشكالية "النسق المضمر" في نقد عبد الله الغذامي، وتطبيقها على نقائض جرير والفرزدق، من أكثر المباحث جدلاً في النقد العربي المعاصر، إذ تضع الناقد والقارئ أمام سلطة "المسكوت عنه" الذي يوجه الخطاب دون وعي واعٍ من المبدع أو المتلقي.

جدلية الانعتاق من الأنساق المضمرة

إنَّ الانعتاق من الأنساق المضمرة لا يعني تدمير الثقافة، بل يعني خلخلة "المركزية" التي تفرض هيمنتها. يرى المنهج الثقافي أن الوعي بهذه الأنساق هو الخطوة الأولى للتحرر؛ فالمجتمع الثقافي ينعتق عبر "تفكيك المركز" وإعادة قراءة النصوص من هوامشها. إن تحويل "المضمر" إلى "مُعلن" عبر النقد الذاتي والمراجعة التاريخية يُفقد النسق سلطته الإلزامية، مما يسمح بتعددية التلقي.

"**إن التحرر من سطوة النسق لا يكون عبر إلغائه، بل عبر الكشف عن آليات عمله، وتحويله من قوة خفية تدير اللاشعور الجمعي إلى مادة للمساءلة والمناقشة؛ فالمعرفة بالنسق هي التي تقوض سلطته.**"[1]

يعزز هذا الاقتباس فكرة أن "الوعي" هو أداة التحرر؛ فبمجرد أن نضع "النسق" (مثل فخر القبيلة أو الفحولة) تحت مجهر النقد، يتحول من "حقيقة مطلقة" إلى "ممارسة ثقافية" قابلة للتجاوز،

[1] -(الغذامي، النقد الثقافي، 2000، ص 112).

وهو ما يمهد الطريق لنقد نقائض جرير والفرزدق ليس كشعرٍ متعالٍ، بل بوصفها وثائق ثقافية تعكس أزمات الهوية في العصر الأموي.

حدود الفاصل بين الجمالية والنسقية

لا توجد حدود فاصلة "هندسية" بين الجمالي والنسقي، فكلاهما يتداخلان في بنية النص؛ فالجمالي غالباً ما يعمل بوصفه "قناعاً" أو "واجهة" لتمرير النسق الأيديولوجي. في نقائض جرير والفرزدق، كانت الجمالية (الوزن، القافية، الاستعارة) هي "الحامل" الذي مكن النسق (الذكورية، القبلية، السلطوية) من التغلغل في وجدان الجمهور. إثبات أيهما كان الأولوية يتطلب "القراءة المقابلة"؛ أي البحث عن المواضع التي يضحي فيها الشاعر بالجمالية لصالح تعزيز قوة النسق، أو العكس.

"لا يمكن الفصل بين الجمالي والنسقي في الخطاب الأدبي؛ إذ غالباً ما يُستخدم الإبداع الجمالي بوصفه غطاءً أيديولوجياً يضفي مشروعية على الأنساق الثقافية التي يتبناها المجتمع."[1]

يؤكد هذا النص أن الجمالية في النقائض لم تكن معزولة، بل كانت "استراتيجية تمرير". فجمهور العصر الأموي لم يكن يبحث عن "الفن للفن"، بل كان يبحث عن "الفخر والانتصار القبلي"، لذا كانت الجمالية وسيلة لتعظيم فعل التعيير والافتخار. إن الأولوية في نقائض العصر الأموي كانت للوظيفة النسقية (إثبات الذات القبيلة) التي استعانت بالجمالي لضمان التأثير والبقاء في الذاكرة الجمعية.

إن قراءة جرير والفرزدق من منظور النقد الثقافي تحيلنا إلى إدراك أن "الجمالية" في هذه النقائض لم تكن سوى أداة لترسيخ نسق "الفحولة" و"القبلية"، وأن الانعتاق من هذه الأنساق اليوم يتطلب منا النظر إلى هذه النصوص بوصفها "نتاجاً لزمنها" لا "نموذجاً أبدياً"، مما يفتح أفقاً جديداً لاستيعاب الشعر العربي بعيداً عن تقديس الموروث.

المبحث الثاني: النسق السياسي وتمرير أيديولوجيا السلطة في نقائض جرير والفرزدق

الفكرة النظرية والعمق الثقافي للنسق السياسي

[1] -(محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، 1992، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص 85).

لم يكن الخطاب الشعري الأموي، وتحديداً خطاب النقائض، منبت الصلة عن المركزية السياسية الجديدة التي أرست دعائمها الخلافة الأموية في دمشق؛ بل كان يمثل الذراع الإعلامية والأيديولوجية غير الرسمية للسلطة. يتجاوز النقد الثقافي الفهم السطحي للقصائد بوصفها مدائح أو هجائيات تكسبية محضة، ليرصد "النسق السياسي المضمر" الذي يعمل على ترسيخ مشروعية السلطة الحاكمة وجعلها قدراً إلهياً لا يجوز الخروج عليه.

الآلية النسقية هنا تشتغل عبر تبادل الأدوار بين جرير والفرزدق؛ فعلى الرغم من صراعهما الظاهري، يلتقي الشاعران في نقطة نسقية مركزية وهي: شرعنة نظام الحكم الأموي وتحويله إلى قطب الوجود الأوحد. يمرر الخطاب عبر جماليات المدح والهجاء المتبادل نسق "الطاعة العمياء" وصهر الهويات الفرعية لصالح السلطة المركزية، مع استخدام الخصومة الأسلوبية كأداة لإلهاء الحاضرة العربية عن المظالم السياسية والاقتصادية؛ وهو ما يُعرف في الأدبيات الثقافية بـ"توجيه الصراع الجمعي نحو قنوات وهمية بديلة".

وفي هذا الصدد، يؤكد نقاد الخطاب السياسي والتاريخي أن السلطة المستبدة لا تحكم بالسيف وحده، بل بالبلاغة التي تشرعن وجودها. وبحسب الأطروحات النقدية المقاربة، فإن الشاعر التراثي –حتى وهو يظن نفسه ذاتاً مستقلة– يتحول في كثير من الأحيان إلى "بوق نسقي" يعيد إنتاج علاقات القوة والتبعية للمركز، محولاً الأيديولوجيا السياسية إلى نسق ثقافي طبيعي يتقبله المجموع بلا مساءلة.

يقول جرير في إحدى نقائضه وهو يمدح الخليفة الأموي، جاعلاً من حكمه امتداداً للإرادة الإلهية، في سياق رده على الفرزدق:

قَطَعنا هَذِهِ الدُنيا إِلَيكُم وَأَنتُم بَعدُ أَصحابُ الصِراطِ

لَكُم مَشيُ الجِيادِ مُسَوَّماتٍ وَلِلنّاسِ النِعاجُ مَعَ الشِواطِ [1]

ينكشف في هذين البيتين "النسق السياسي المضمر" في أقسى تجلياته الطبقية والأيديولوجية. جرير هنا لا يمدح الخليفة بصفات العدل أو الرعية، بل يخلع عليه قداسة غيبية محضة (أنتم بعد أصحاب الصراط). السطح البلاغي يقوم على المبالغة والتشبيه، أما المضمر الثقافي فهو "إلغاء آدمية الرعية" وتجذير التبعية المطلقة؛ فالناس في نسق جرير المضمر ليسوا سوى "نعاج

[1] -(نقائض جرير والفرزدق، شرح أبي عبيدة معمر بن المثنى، ص 215).

وشواط" (أغنام تساق وتذبح) في مقابل "الجياد المسومة" التي تمثل السلطة الأموية. هذا التنميط المعرفي يرسخ في وعي المتلقي قبول التهميش السياسي والاجتماعي بوصفه قانوناً كونياً، ويحول الخلافة من عقد اجتماعي بشري إلى حق أيديولوجي مقدس لا يُناقش.

يستجيب الفرزدق لذات النسق السياسي المهيمن، بل ويزيد عليه بربط مجده وقبيلته بمدى قربها من ملوك بني أمية، فيقول:

بِمَلكٍ قَد تَبَيَّنَ صالِحاهُ ... لَهُ في كُلِّ مَكرُمَةٍ فُروطُ

هُمُ مَلَكوا العِبادَ بِغَيرِ شَكٍّ ... وَطاعَتُهُم لَنا فِيهَا قُنوطُ[1]

يتقاطع الفرزدق مع جرير في تكريس ذات النسق المضمر؛ إذ يعلنها صراحة وبلا مواربة (هم ملكوا العباد بغير شك). إن استخدام صيغة التوكيد ونفي الشك، يوضح كيف يشتغل لاوعي النص في تمرير مقولة "الاستعباد السياسي". المضمر الثقافي هنا هو نسق "القنوط من التغيير"؛ فطاعة هؤلاء الملوك قدر محتوم، والبحث عن بديل سياسي هو نوع من اليأس والعدمية. إن الفرزدق هنا وهو يناقض جرير أسلوبياً، يتماثل معه نسقياً في جعل الإنسان العربي مجرد "تابع" مسلوب الإرادة، مما يبرهن على أن النقائض كانت صمام أمان ثقافي لحماية بنيات الهيمنة السياسية للدولة الأموية.

لتأصيل هذا التحليل للخطاب السياسي وتفكيك أيديولوجيا التبعية في الشعر الأموي، نستشهد بما أثاره د. جابر عصفور حول علاقة السلطة بالنوع الأدبي:

"**إن الخطاب الشعري التراثي لم يكن منفصلاً عن مؤسسة الخلافة، بل كان يعيد إنتاج تراتبيتها السياسية من خلال صياغات جمالية تبرر الهيمنة. إن الشاعر في عصر النقائض، وإن بدا في صراع مع خصمه، فإنهما يتحركان معاً داخل فلك أيديولوجي واحد يكرس سلطة المركز ويقمع الهوامش. وتتحول القصيدة هنا من وثيقة جمالية إلى أداة نسقية خانقة، تنشر وعياً زائفاً يجعل الرعية تتقبل الاستبداد بوصفه قدراً إلهياً محتوماً، وتشيد بجلادها مدفوعة بسحر البيان البلاغي.**"[2]

[1] -(نقائض جرير والفرزدق، شرح أبي عبيدة معمر بن المثنى، ص 219).

[2] - د. جابر عصفور: الهوية الثقافية ونقد الخطاب، 2002م، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط: 1، ص 112

إنَّ الخصومة الفنية في النقائض عَمِلَت وظيفياً كقناع لتشتيت الوعي الجمعي وإلهائه عن الصراعات السياسية الحقيقية في العصر الأموي.

يلتقي جرير والفرزدق نسقياً – على الرغم من تناقضهما أسلوبياً – في نقطة إضفاء القداسة الغيبية على السلطة الحاكمة وتشذيب وعي الرعية للاستسلام.

يفترض المنهج الثقافي أن الشاعر يمرر النسق السياسي طواعية عبر لاوعيه، متجاهلاً سياق "الترهيب والترغيب" السلطوي المباشر؛ فالشاعر في العصر الأموي كان مجبراً على تبني هذا الخطاب لحماية وجوده المادي والفيزيائي، وليس مجرد ممرر نسقي غير واعٍ.

و قد يؤدي التركيز الصارم على "أيديولوجيا السلطة" إلى إسقاط مفاهيم سياسية حديثة (كالماركسية والتفكيكية) على عصر تراثي له محدداته الخاصة، مما يفقد النص أدبيته ويحيله إلى مجرد منشور سياسي.

يمكن إثارة تساؤلات

* كيف يمكن تفسير الأبيات التي خرج فيها جرير أو الفرزدق عن نسق السلطة وهجوا فيها بعض الولاة أو انتقدوا سياسات معينة؟

* ما المدى الحقيقي لتأثير هذا النسق المضمر في الجمهور الأموي؟ هل كان المتلقي التراثي يتشرب هذه الأنساق بسذاجة، أم كان واعياً باللعبة السياسية ويستهلك النقائض بوصفها فرجة لغوية ترفيهية مسرحية؟

إنَّ إثارة هذه التساؤلات تنمّ عن وعيٍ نقديٍّ متقدمٍ يتجاوز التلقي السطحي للنقد الثقافي، ويغوص في تعقيدات العلاقة بين النص والسلطة والجمهور في العصر الأموي.

أولاً: في خرق النسق أم إعادة إنتاجه (هجاء الولاة)

إن خروج الشاعر (جرير أو الفرزدق) عن نسق السلطة بهجاء والٍ أو انتقاد سياسة لا يُعد، من منظور النقد الثقافي، خرقاً جذرياً للنسق بقدر ما هو "تعديل مسار" أو "تنافس داخل النسق نفسه". فالنسق المضمر في الشعر الأموي يقوم على "الفحولة" و"المركزية القبلية"؛ فحين يهجو الشاعر والياً، فإنه لا يهاجم مؤسسة الخلافة لذاتها، بل غالباً ما يهاجم "انحياز" هذا الوالي لقبيلة ضد أخرى، أو قصوراً في إيفاء حقوق الشاعر.

ثانياً: وعي المتلقي بين "التشرب" و"الفرجة"

فيما يخص الجمهور، فإن الإجابة تكمن في مفهوم "الازدواجية في التلقي". لم يكن الجمهور الأموي مجرد كتلة صماء تتشرب الأنساق بسذاجة، بل كان جمهوراً "سياسياً" بامتياز، يدرك اللعبة التنافسية بين الشاعرين. ومع ذلك، فإن خطورة "النسق المضمر" تكمن في أنه يعمل في المنطقة التي "يغفل" فيها المتلقي عن الأيديولوجيا لصالح المتعة الجمالية.

يقول جرير في سياق استعراضه للفخر القبلي الذي يتشربه الجمهور:

يُعَيِّرُنا القَوْمُ بِالمَكْرُمَاتِ وَأَنا لَهُمْ قَدْ حَوَيْنا النَّصِيبَا

وَلا يَسْتَوِي مَنْ يُعَظِّمُ قَوْمَهُ وَمَنْ يَبْتَغِي فِي العُلَى أَنْ يَخِيبَا[1]

يغذي جرير هنا وعي المتلقي بمفهوم "التمايز القبلي"، إذ لا يُنظر للمتلقي بوصفه إنساناً مجرداً، بل بوصفه عضواً في "مجموعة" ذات أفضلية. إن طرب المتلقي للوزن والقافية هنا يصرف ذهنه عن التمييز الطبقي الذي يكرسه النص، مما يجعل "الجمال الفني" غطاءً لقبول التفاوت الاجتماعي.

يقول حسين الواد: "**إنَّ المتلقي في العصور الكلاسيكية كان يمارس نوعاً من التماهي اللاشعوري مع القيم المركزية للنص؛ إذ تمنحه المتعة الفنية (الوزن والقافية) غطاءً نفسياً يجعله يقبل الأفكار الأيديولوجية المبطنة دون فحصٍ نقدي**" [2]

يؤكد هذا النص أن "الفرجة اللغوية" كانت الفخ الذي أوقع المتلقي في شراك النسق؛ فبينما كان الجمهور يطرب للبناء اللغوي المتقن والقدرة على "الفحولة" في الهجاء، كان يتشرب في الوقت ذاته قيم التعصب، التمييز، وتراتبية القبائل، مما يحول "الفرجة" إلى أداة لتثبيت النسق الاجتماعي والثقافي في اللاشعور الجمعي.

يضعنا هذا الاقتباس أمام "فخ الفرجة"؛ فالإبهار البلاغي يعطل ملكة النقد لدى الجمهور، مما يحول القصيدة من أداة تعبير إلى "أداة تدجين" فكري، حيث يتقبل المتلقي قيم الاستعلاء القبلي بوصفها حقائق فنية ثابتة.

وفي السياق نفسه، يعزز الفرزدق هذا الوعي ببيت يكرس سيادة القبيلة:

فَإِنَّ قُرَيْشاً مَا لَهَا مِنْ مُعَادِلٍ وَنَحْنُ لَهَا كَالظِّلِّ نَمْشِي وَنَغْدُو

[1] - نقائض جرير والفرزدق، شرح أبي عبيدة معمر بن المثنى، ص 412

[2] - حسين الواد، *في مناهج الدراسات الأدبية*، دار محمد علي الحامي، 1985، ص 92

إِذَا مَا قُرَيْشٌ سَادَتِ النَّاسَ كُلَّهُمْ فَلَيْسَ عَلَى مَنْ سَادَ لِلناسِ تَنْدُو[1]

يرسخ الفرزدق في ذهن المتلقي "تراتبية طاعة" لا تقبل الجدل؛ فربط مكانة القبيلة بمكانة "قريش" يكرس في اللاشعور الجمعي للمتلقي أن القوة هي معيار الحق، مما يحول الجمهور من أفراد فاعلين إلى ظلالٍ تتبع السلطة القبلية والسياسية.

يقول د. عبد الله الغذامي: "**إنَّ النسق الثقافي يشتغل في الشعر عبر تحويل (المقدس القبلي) إلى (متعة جمالية)، لضمان انقياد المتلقي طوعاً للأفكار التي تكرس هيمنة القوي على الضعيف**" [2]

يؤكد هذا التحليل أنَّ المتعة الفنية ليست بريئة؛ فهي تعمل بوصفها "وسيطاً أيديولوجياً" يذيب الحواجز النقدية لدى المتلقي، مما يجعله شريكاً في إنتاج الأنساق التي تحكمه وتصادر قدرته على التغيير عبر تكريسه لثقافة التبعية.

إنَّ وعي المتلقي في عصر النقائض كان خاضعاً لجدلية المتعة والوعي؛ فبقدر ما كان الجمهور "مستمتعاً" ببراعة جرير والفرزدق، كان "مستلباً" في منظومة القيم التي يبثها الشاعران. إن إعادة قراءة هذه النصوص اليوم كوثائق أنثروبولوجية تتيح لنا فهم كيف تحولت "المبارزة اللغوية" إلى "حقل اختبار" للأنساق التي شكلت وجداننا، مما يجعل النقد الثقافي ضرورةً لتفكيك هذه الأنساق والتحرر من هيمنتها في خطابنا المعاصر.

المبحث الثالث: النسق الفردي وتمركز الذات (الفحولة الشعرية وجنون العظمة)

أولاً: الفكرة النظرية والعمق الثقافي للنسق الفردي

لا يتوقف الخطاب الأموي عند حدود العصبية القبلية أو أيديولوجيا السلطة، بل يتغلغل إلى صياغة "نسق فردي" نرجسي يضع الشاعر في مركز العالم، وهو ما عُرف في التراث النقدي العربي بـ "الفحولة". في نقائض جرير والفرزدق، تتجاوز الفحولة معناها الأدبي كجودة في السبك وسلامة في الوزن، لتتحول إلى "نسق مضمر" يكرس جنون العظمة بوصفه قيمة إيجابية.

[1] - نقائض جرير والفرزدق، شرح أبي عبيدة معمر بن المثنى، ص 425
[2] - الغذامي، النقد الثقافي، ص 115

إن الفحولة هنا ليست مجرد مهارة، بل هي إيديولوجيا ثقافية تعيد إنتاج الذات المتضخمة التي لا ترى للآخر وجوداً إلا بقدر ما ينقص من قدرها أو يعلي من شأنها. النسق المضمر هنا هو "إلغاء الآخر" (الغيرية) وإحلال الأنا محل الكون؛ حيث يصبح الشاعر هو الميزان المعياري للقيم، والجمال، والحق، والباطل. هذا النسق يغذي بدوره النزعة الفردية المتطرفة، ويعزز من سلطة "الشاعر–النجم" الذي يتحدث بلسان الجمعي، لكنه في الحقيقة يمارس هيمنة نرجسية تضعف روح الجماعة لصالح عبادة الشخصية.

ويشير نقاد النقد الثقافي إلى أن هذا النوع من "الفحولة النسقية" كان أحد العيوب التي تراكمت في الذاكرة الأدبية، إذ تم التغاضي عن جنون العظمة في نصوص هؤلاء الشعراء وتمريره بوصفه "عبقرية فذة"، مما جعل هذا النمط من الذات المتمركزة حول نفسها نموذجاً يحتذى به في الثقافة العربية اللاحقة.

يقول جرير في سياق افتخاره بقدرته التي لا تُجارى:

إِنّي لَأَستَلُّ مِن قَومٍ إِذا اِجتَمَعوا مِثلَ العَدايَةِ فَوقَ الأَرضِ مُعتَصَمُ
فَما قَرَنتَ بِنا إِلّا إِذا اِعتَرَفوا بِأَنَّنا لِعُلى الآباءِ قَد قَسَموا [1]

يُعدّ جرير في هذا النص باني "أسطورة الذات". استخدام الضمير "إنّي" المتصدر للبيت يشي بمركزية الأنا التي لا تقبل المشاركة. المضمر الثقافي هنا هو "نسق احتكار الحقيقة والمجد"؛ فهو لا يكتفي بالافتخار، بل يضع الآخرين في وضعية الاعتراف بتبعيته (إلا إذا اعترفوا). هذه الفحولة اللغوية تحمل في طياتها نرجسية نسقية تهمش إنجازات الآخرين وتسلبهم حقهم في الندية. إن جنون العظمة هنا يمرر نسق "الفردية المتعالية" التي تتطلب من المجتمع خضوعاً دائماً، وهو ما يفسر تقديس التراث لصور الشعراء الفحول الذين لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم.

يرد الفرزدق بأسلوب يضخم ذاته لتبلغ مصاف الأساطير الوجودية:

وَما ضَرَّني أَن لَم يَكُن لِيَ مَنصِبٌ إِذا كُنتُ في كُلِّ المَكارِمِ بَحرُ
أَلَم تَرَ أَنّي حينَ أُهجى أُجيبُكُم بِمَجدٍ لَهُ فَوقَ النُجومِ مَمَرُّ [2]

[1] - (نقائض جرير والفرزدق، شرح أبي عبيدة معمر بن المثنى، ص 302).
[2] -(نقائض جرير والفرزدق، شرح أبي عبيدة معمر بن المثنى، ص 310).

ينزع الفرزدق نحو "تأليه الذات"؛ فإذا كان الفخر بالقبيلة يحد من حرية الفرد، فإنَّه هنا يجعل من نفسه (بحر المكارم) كياناً مستقلاً عن القبيلة. المضمر الثقافي هنا هو "تمرد النرجسية"؛ حيث يضع الفرزدق مجده في مكانة متعالية (فوق النجوم) لا يطالها أحد. إن هذا التضخم الذي يسميه النقاد "الفحولة"، هو في الحقيقة نسق ثقافي يعزز الانفصال عن الواقع والمجتمع، ويخلق ذاتاً متضخمة تعيش في عالمها الخاص، مما يكرس نموذج الشاعر "المنفصل عن البشر" الذي لا يقبل النقد ولا يعترف بالخطأ، وهو عيب ثقافي أصيل في تاريخ النقد العربي.

"**إنَّ ظاهرة الفحولة في الشعر العربي القديم ليست مجرد قدرة فنية، بل هي نسق ثقافي أيديولوجي يكرس تضخم الذات (الأنا) على حساب المجموع. إن هذا النسق المضمر، الذي يُعلي من شأن الشاعر الفحل حتى يجعله كائناً فوق الطبيعة، هو المسؤول عن تكريس نمط من التلقي يقدس الفرد ويحتقر النقد، مما يجعل من جنون العظمة سمة مقبولة جمالياً، بل وضرورة بنيوية لتعريف الشاعر في سياق النقائض.**"[1]

إنَّ الفحولة الشعرية في العصر الأموي هي غطاء ثقافي لنسق "تضخم الذات" (النرجسية) الذي يغذي جنون العظمة. تعزز الفحولة النسقية عزلة الشاعر عن المجتمع، وتضعف قيم الحوار والاعتراف بالآخر.

فيما نراه في كشف الجوانب النفسية والاجتماعية للخطاب الشعري التي أهملتها البلاغة القديمة. و ربط المفهوم الجمالي (الفحولة) بالظاهرة النفسية–الثقافية (النرجسية)، مما يفتح آفاقاً جديدة لقراءة التراث.

إنَّ التأويل النفسي المفرط: والاعتماد على مفاهيم مثل "جنون العظمة" و"النرجسية" قد يعتبر إسقاطاً لعلم النفس الحديث على نص كلاسيكي نشأ في سياق ثقافي مختلف تماماً، كان يُنتظر من الشاعر في العصر الأموي أن يتسم بـ "الفخر" ليحفظ كرامته وقبيلته، وبالتالي قد تكون هذه "النرجسية" مجرد "عرف أدبي" وليست بالضرورة خللاً في شخصية الشاعر.

تُثار مجموعة تساؤلات

[1] - د. محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص،1992م، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، ص 55

* هل يمكن للفحولة الشعرية أن تكون دافعاً للإبداع بدلاً من أن تكون عائقاً نسقياً؟

* ما هو الدور الذي لعبته "النقائض" تحديداً في تشكيل صورة "الشاعر السوبرمان" في الوعي العربي اللاحق، وهل كان للجمهور دور في تغذية هذا الجنون عبر التصفيق والتحريض؟

إن هذه التساؤلات تلامس جوهر التكوين النفسي والاجتماعي للشاعر في العصر الأموي، وتكشف عن الجدلية العميقة بين "الإبداع الفردي" و"السلطة الثقافية الجماعية".

أولاً: الفحولة بين "الدافع الإبداعي" و"العائق النسقي"

لا يمكن فصل "الفحولة" عن كونها نسقاً، لكنها في الوقت ذاته تعمل "محركاً إبداعياً". إن الطموح للوصول إلى مرتبة "الفحل" فرض على الشاعر إتقان أدوات اللغة، وتجويد السبك، والتمكن من أغراض الشعر المختلفة، مما رفع من سقف المهارة الفنية. ومع ذلك، يظل هذا الدافع "عائقاً" لأنه يقيد الشاعر بإطار نمطي يمنعه من تجاوز الصور المعهودة أو التعبير عن ذواتٍ خارج إطار "المنظومة القبلية".

"**إنَّ الفحولة الشعرية لا تقتصر على كونها قيمة تقويمية للنص، بل هي نسقٌ يحدد للشاعر مسارات القول، إذ يصبح الإبداع محكوماً بنزعة التميز والتفوق التي لا تعترف إلا بالقدرة على المنافسة في قوالب جاهزة.**"[1]

يعزز هذا الاقتباس فكرة أن الفحولة هي "سياج إبداعي"؛ فهي تدفع الشاعر نحو الإجادة والابتكار داخل النسق، لكنها في الوقت نفسه تحاصر طاقاته الإبداعية وتمنعه من الخروج إلى فضاءات التجريب التي قد تتناقض مع روح العصر القبلية.

ثانيا: النقائض وصناعة "الشاعر السوبرمان" (دور الجمهور)

لقد شاركت النقائض في خلق صورة "الشاعر السوبرمان" عبر تحويل الساحة الشعرية إلى "حلبة صراع". لم يكن جرير والفرزدق مجرد شاعرين، بل تحولا إلى أيقونات يمثلان "عنفوان القبيلة". الجمهور هنا لم يكن سلبياً، بل كان "المحرك الأساسي"؛ فبالتصفيق والتحريض والمراهنة، غذّى الجمهور نزعة "الاستعلاء" لدى الشاعر، مما جعله يعتقد أنه فوق النقد، بل وفوق المجتمع أحياناً.

[1] -(أدونيس، سياسة الشعر، 1985، دار الآداب، بيروت، ص 68).

"لقد عمل الجمهور في العصر الأموي كشريك في صناعة الأسطورة الشعرية؛ إذ أن طقوس النقائض كانت تحاكي صراعات القوة، وكان المتلقي بتشجيعه المحموم يكرس صورة الشاعر بوصفه بطلاً يمتلك سلطة الكلمة التي لا تُغلب."[1]

يضيء هذا التوثيق على دور "التواطؤ الجمعي" في تغذية جنون العظمة لدى الشاعر. فالنقائض لم تكن ترفيهاً فحسب، بل كانت "طقساً اجتماعياً" يرفع الشاعر إلى مرتبة "السوبرمان" الذي لا يخطئ، مما يعكس كيف يمكن للجماهير أن تشكل "وعي البطل" وتجبره على الاستمرار في دائرة "الاستعلاء النسقي".

إنَّ الفحولة الشعرية، حين نضعها في ميزان النقد الثقافي، تظهر لنا كذاتٍ إبداعية مقيدة بالوعي الجمعي؛ فقد كانت هي الدافع الأسمى للارتقاء الفني، وفي الوقت نفسه كانت القفص الذي حبس الشاعر داخل أوهام التميز. أما الجمهور، فقد كان "المرايا" التي يعكس فيها الشاعر صورة سطوته، مما رسخ في الوعي العربي اللاحق صورة الشاعر الذي لا يُقهر، وهي صورة لا تزال تلقي بظلالها على مفهوم "الشاعر الأسطورة" في تراثنا.

يلتقي جرير والفرزدق نسقياً – على الرغم من تناقضهما أسلوبياً – في نقطة إضفاء القداسة الغيبية على السلطة الحاكمة وتشذيب وعي الرعية للاستسلام.

وهنا يمكن تعرية الوظيفة الأيديولوجية والسياسية المخبوءة وراء قصائد المديح والهجاء المتبادل، وكشف تماهي المثقف (الشاعر) مع السلطة المستبدة.

و فك شفرة التماثل النسقي بين الشاعرين، مما يثبت أن الخلاف بينهما هو خلاف في السطح اللغوي فقط، بينما القاع المعرفي واحد.

ثالثاً: خرق النسق أم إعادة إنتاجه (هجاء الولاة)

لا يُعد خروج الشاعر عن مقتضيات الطاعة بهجاء والٍ ما خرقاً بنيوياً للنسق، بل هو أقرب إلى "إعادة تموضع" داخل منظومة القوة. فالنسق الأموي يقوم في جوهره على "الفحولة" و"المركزية القبلية"، وحينما يوجه الشاعر حِداة هجائه ضد والٍ معين، فإنه لا يهاجم مؤسسة الخلافة بوصفها

[1] -(شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، 1993، دار المعارف، القاهرة، ص 342).

كياناً سياسياً متعالياً، بل يهاجم "انحياز" هذا الوالي لصالح قبيلة منافسة، مما يؤكد أن الهجاء هنا ليس تمرداً على السلطة، بل هو تعزيز للتعصب القبلي الذي يشكل عصب هذا الخطاب.

يمارس جرير هنا نوعاً من "النقد التابع"؛ فهو لا يرفع صوته ضد التراتبية التي تجعل من السلطة "أصحاب الصراط" ومن الناس "نعاجاً"، بل يطالب بموقعٍ أقرب لهذه المركزية. إن خطابه يؤكد أن الشاعر جزءٌ من المنظومة، إذ يغلف نقده للوالي بمدحٍ ضمني لمشروعية السلطة الكبرى.

يكشف هذا الاقتباس أن البلاغة في الشعر الأموي كانت "أداة تعمية"؛ إذ يسهم الإبهار اللغوي في تحويل القهر السياسي إلى قدرٍ مقبول، ويجعل من الهجاء السياسي وسيلةً لتزكية طرفٍ على آخر داخل النسق ذاته، دون المساس بصلب التكوين الاستبدادي.

يعترف الفرزدق هنا بشرعية الهيمنة "بلا شك"، ويحول العلاقة مع السلطة إلى علاقة "قنوط" وامتثال. يظهر هذا البيت أن الشاعر، مهما بلغت حدة صراعه مع خصومه، يظل يحرس حدود النسق، محولاً صراعه الخاص إلى وقودٍ يغذي استقرار السلطة المركزية.

يقول د. عبد الله الغذامي: "**إنَّ الأنساق الثقافية لا تنهار بالمعارضة الجزئية، بل تتماسك عبر استيعاب هذه المعارضة؛ فالهجاء السياسي في العصر الأموي غالباً ما كان يغذي النسق القبلي، ويحوله إلى أداة لترسيخ الوجود الفردي للشاعر ضمن منظومة السلطة الكبرى**" [1]

يؤكد الغذامي أنّ هذه "المعارضة الجزئية" تعمل كصمام أمان للنظام؛ فبدلاً من أن يهدم الهجاء النسق، فإنه يُعيد تدويره، إذ يستهلك الشعراء طاقاتهم في التنابز القبلي بينما تظل السلطة "المستفيد الأكبر" من هذا التنافس الذي يمنع أي وحدةٍ حقيقيةٍ خارج إطارها.

خلاصة القول، إنَّ هجاء الولاة في نقائض جرير والفرزدق لم يكن خروجاً على الأيديولوجيا الأموية بقدر ما كان تعبيراً عن "تدافع" داخل حدودها. لقد نجح الشاعران في صياغة هجاءٍ فنيٍّ فائقٍ، لكنه ظل في جوهره أسيرَ النسق القبلي، يعيد إنتاج علاقات القوة التي تدعي نقضها. ومن هنا، يظل الفحص النقدي لهذه النصوص ضرورةً لا غنى عنها، ليس فقط لتذوق جمالياتها، بل لكشف شفرات التبعية التي تسللت عبر الكلمة لتشكل وجداننا الجمعي.

خاتمة البحث

[1] - الغذامي، النقد الثقافي، ص 391

لم تكن هذه الدراسة محاولة لتسجيل إدانة أخلاقية لرموز الشعر الأموي، بقدر ما كانت محاولة لاستنطاق الذاكرة الثقافية العربية التي احتفظت بهذه النصوص بوصفها نماذج كمالية. لقد أظهر لنا النقد الثقافي أن النصوص التراثية ليست بريئة من إيديولوجياتها، وأن ما اعتدنا قراءته كـ "جمال خالص" يحمل في طياته شفرات ثقافية معقدة ساهمت في تشكيل ملامح هويتنا العربية، بأنساقها القوية وضعفاتها البنيوية.

إن إعادة قراءة النقائض اليوم ليست ترفاً معرفياً، بل هي ضرورة لفهم المسكوت عنه في واقعنا السياسي والاجتماعي، ولتحرير الوعي من الأنساق التي لا تزال تُعيد إنتاج نفسها في الخطاب المعاصر. لقد أثبتنا أن الشعر حينما ينجح في السيطرة على المتلقي ببلاغته، قد ينجح في الوقت ذاته في تسريب أنساقه الخفية إليه؛ لذا يظل الوعي النقدي هو المصفاة الوحيدة التي تحمي العقل من الوقوع في فخ التلقي الأعمى لجماليات قد تحمل في طياتها بذور الإقصاء والتبعية.

أهم النتائج:

بعد الدراسة التحليلية لنقائض جرير والفرزدق في ضوء النقد الثقافي، توصل البحث إلى النتائج الآتية:

1. طبيعة النسق المضمر: أثبتت الدراسة أن الخطاب الأموي في النقائض لم يكن مجرد صراع شخصي، بل كان تظهيراً لأنظمة ثقافية مضمرة تعيد إنتاج العصبية القبلية والتراتبية الاجتماعية الجاهلية تحت غطاء بلاغي أموي.

2. وظيفة البلاغة: كشفت الدراسة أن "الجمالية البلاغية" في قصائد النقائض لم تكن غاية في ذاتها، بل كانت أداة نسقية واعية أو شبه واعية لشرعنة الهيمنة السياسية وتمرير أيديولوجيا السلطة المركزية.

3. التماهي النسقي: برهن البحث على أن جرير والفرزدق، على الرغم من تناقضهما في السطح الأسلوبي، قد تماهيا في العمق النسقي، إذ اشتركا في تكريس قيم التبعية، وفحولة الذات، وإقصاء الآخر، مما يجعلهما طرفين في نسق ثقافي واحد.

4. تضخم الأنا: أكدت الدراسة أن مفهوم "الفحولة" في النقد العربي التراثي قد أدى نسقياً إلى تغذية النرجسية الشعرية، مما أنتج نموذجاً للشاعر المتمركز حول ذاته، وهو ما أثر سلباً في قيم الحوار الديمقراطي في بنية الثقافة العربية.

5. الاستمرار النسقي: توصل البحث إلى أن الأنساق المضمرة التي رصدناها في الشعر الأموي (كالقبلية، والاستبداد، والفردية المتعالية) لا تزال فاعلة في الوجدان الجمعي العربي المعاصر، وتنتظر تفكيكاً نقدياً مستمراً.

المصادر والمراجع

المصادر

1. نقائض جرير والفرزدق (شرح أبي عبيدة معمر بن المثنى). دار صادر، 1998.

المراجع

1. إسبر، علي أحمد سعيد (أدونيس). (1985). *سياسة الشعر*. دار الآداب.
2. الغذامي، عبد الله. (2000). *النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية* (ط. 1). المركز الثقافي العربي.
3. الواد، حسين. (1985). *في مناهج الدراسات الأدبية*. دار محمد علي الحامي.
4. النويهي، محمد. (1978). *الشعر الجاهلي ومنهجية التطور*. دار الفكر.
5. ضيف، شوقي. (1993). *تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي*. دار المعارف.
6. عصفور، جابر. (2002). *الهوية الثقافية ونقد الخطاب* (ط. 1). دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
7. مفتاح، محمد. (1992). *تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص*. المركز الثقافي العربي.